

التغلب على نقاط التفتيش في فلسطين

شيرين الأعرج

في البيت وفي داخل مجتمعي، يعتبرني الناس ناشطة سلام تقود سيارتها كل يوم للعمل على بناء السلام الذي يبدو دائماً أمراً مبهماً ومضيعة للوقت. وأسوأ الكوابيس كان عندما تعرض الطريق المؤدي على منزلي لاغلاق مفاجئ، ولم يكن لدي أي مكان لأذهب إليه، لذا كان لا بد من الانتظار داخل سيارتي عند نقطة التفتيش، ليس لدي حول ولا قوة غير الأمل في حصول معجزة. وقد أضاف هذا المزيد من الضغوط على حياتي، فأنا أعيش في مجتمع محافظ وتقليدي. ويمكنني أن أرى التوبيخ الصامت في عيون الناس عندما اضطر للبقاء في الخارج لساعات طويلة جداً مع غرباء في بيئة مقلقة قد يحدث فيها أي شيء.

في فلسطين لا يمكنني أبداً القيادة لأكثر من نصف ساعة دون أن أرغم على التوقف عند نقاط التفتيش. وكل مرة أتعرض لنفس المضايقات من الجنود الذين يطرحون علي نفس الأسئلة. وأتعرض لنفس الاجراءات، حيث لا توجد أي قيمة لوقت المواطن الفلسطيني.

لا يحسدون عليه لأن الجنود يجروهم من لحاهم، بل ويطلبون من البعض نزع ملابسهم والخضوع لإذلال عندما تبدأ الكلاب بشمهم. رأيت العديد من الشباب يُرسلون إلى الجورة (حفرة)، وهو نوع من العذاب الذي يتعرض له سكان الضفة الغربية، وهي عبارة عن صفيحة قمامة يوضع فيها الفلسطينين

كان الهبوط في مطار هيثرو بالنسبة لي مثل الهبوط في أي مطار آخر في العالم، ففي جميع تلك المطارات تُطرح علي العديد من الأسئلة، لأن الوشاح الذي يغطي شعري يجعلني مشبوهة حيثما أذهب، ويجعلني ممن يقع عليهم دائماً الاختيار «العشوائي» للتحقيق. عندما اتصلت بي عائلتي يوم وصولي، أخبرتهم عن تفاجئي عندما قادت سيارتي لأربع ساعات دون أي أن يوقفني أحد ولا مرة واحدة وبدون أن أن يقوم أحد ما بالتحقيق معي!

كنت أعمل مديرة مشاركة لمشروع يجمع شباب الشرق الأوسط، بما فيهم الفلسطينيين والإسرائيليين، لمناقشة المواضيع التي يتشاركون فيها والتي يختلفون فيها.

هناك شبكتنا طرق شبه مستقلة في الضفة الغربية. الشبكة الأولى العالية الجودة ذات الموقع الجيد والمعقدة بشكل متقن، والمضاهة محجوزة للإسرائيليين أما الأخرى المحطمة، والمثقبة، والمحاصرة فهي لنا. في كل صباح أغادر منزلي قبل ٩٠ دقيقة من الموعد المفترض لو لم يكن هناك حواجز تفتيش بين بيتي ومكتبي الواقع على بعد ثمانية أميال. وهي عملية لا تنتهي من الإذلال. ففي كل يوم قانون جديد، أو نظام أو أمر عسكري جديد. وقد لا تفيد المعرفة الشاملة لكل أنواع الخدع عند التعامل مع الجنود العدائين، الذين يمتلكون القوة والسلطة التي تجعلهم يعتقدون أن بإمكانهم فعل ما يشاؤون. لقد تعلمت أنه علي محاولة الحفاظ على أعصابي لأن لعب لعبتهم الاستفزازية لن يساعدي وسيعرضني للأذى. فقد يسبب تقديم جواب «خاطئ» مشكلة كبيرة، ليس لي فقط، بل أيضاً لكل الناس الذين ينتظرون خلفي على نقطة التفتيش وأولئك القادمين في وقت لاحق من ذات اليوم.

لقد شهدت الكثيرين ممن تمت إعادتهم لأنهم لا يمتلكون الوثائق «الصحيحة» أو لأنهم توقفوا عن نقطة التفتيش الخطأ، كما يتم إعادة الكثير منهم ببساطة لأن الجندي لا يستطيع قراءة وثائقهم. بل يتعرض العديد منهم للصفع والضرب نتيجة لمجادلتهم الجنود أو لأنهم حاولوا فهم أو توضيح أمر ما. أما الرجال ذوي اللحي الطويلة فهم في وضع

ساعات حتى يتم الكشف عليهم من قبل الأمن الداخلي الإسرائيلي، الشين بيت. وصادفت مرة رجل يترجى الجنود ليسمحوا له بالمرور حتى يتمكن من استيلاء جثمان إبنه من المستشفى ليدفنه. وفي كل يوم عند نقاط التفتيش بينما ننتظر نحن الفلسطينيون في الحرارة الحارقة، يمر المستوطنين الإسرائيليون في عرباتهم المكيفة في طرقاتهم الخاصة. وقد طورت العديد من نقاط التفتيش ميزاتياتهم الخاصة من الجانب الفلسطيني في الوقت الذي يبيع فيه الباعة الماء والوجبات الخفيفة.

واعتبر أنا من المحظوظين لأنني أحمل هوية القدس الزرقاء حيث أحمل بطاقة الإقامة الدائمة - ولكن ليس المواطنة - في إسرائيل. وفي أغلب الأحيان تسمح لي هويتي المقدسية بالمرور من خلال نقاط التفتيش بينما يتم إعادة طوابير من الواقفين الآخرين.

إن الدراسة هنا في المملكة المتحدة - في محاولة لفهم نظام حقوق الإنسان وآلياته وحالات نجاحه وفشله - أمرٌ محببٌ، وأصبح من الواضح بالنسبة لي أن وضعنا في فلسطين، أو بالأحرى البقية الصغيرة الباقية منها، يعتبر فريداً ففقرات الجمعية العامة ومحكمة العدل الدولية غير هامة، واللاجئون لا يعتبرون لاجئين عندما يكونون فلسطينيين. ببساطة نحن أجنب على أرضنا.

شيرين الأعرج تكمل درجة الماجستير في مركز حقوق الإنسان في جامعة إيسكس. البريد الإلكتروني: salara@essex.ac.uk

